الظواهر الصوتية لآيات الأحكام

دراسة تطبيقية

د. إبراهيم مصطفى العبد الله إبراهيم نمارنة
وزارة التربية والتعليم/الاردن
رئيس قسم الإشراف التربوي

بسم الله الرحمن الرحيم

(الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)

هود / ١

ملخص البحث :

يهدف هذا البحث [الظواهر الصوتية في آيات الأحكام دراسة تطبيقية] إلى التعرف إلى آيات الأحكام ومدى انطباقها على هذه الظواهر .

في بداية البحث ، تناول الباحث المعنى اللغوي والاصطلاحي لآيات الأحكام ، ثم تطرق إلى الأصوات اللغوية ومخارجها وصفاتها كمدخل للبحث ، وبعدها تناول الظواهر الصوتية ؛ المد ، الفواصل والتنغيم والتوزيع الصوتي في الكلمات والآيات ، وعالجها معالجة نظرية ، يليها تطبيق لكل ظاهرة من آيات الأحكام . وقد اكتشف الباحث من خلال هذه المعالجة أن آيات الأحكام غنية بكل الظواهر وما تتضمنه من إيقاعات صوتية موسيقية ، أحدثها التنغيم والمد والفواصل والإدغام وتسهيل الهمز

كما اشتملت الآيات القرآنية التي فيها تهديد وعقاب على جرس موسيقي يناسبها ، وذلك بما في حروف ألفاظها من صفات كالتشديد الانفجاري والمجهور والمهموس . والآيات التي ليس فيها التهديد والعقاب اشتملت على حروف خفيفة يناسبها أيضا .

كما لوحظ أنه لا تنافر بين حروف ألفاظ الآيات ، وهناك تناسب بين الأصوات اللغوية الداخلية في اللفظة الواحدة ، وتناسب بين الألفاظ وهدف الآية. وأما التكرار ، في آيات الأحكام ، فقد جاء للتأكيد والأهمية .

وأخيرا فإن الباحث يرجو الاستمرار في الدراسة والبحث في الظاهرة الصوتية في آيات القرآن الكريم ، واكتشاف أسرارها .

وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لخدمة كتابه العزيز . إنه سميع مجيب.

Abstract :

The present research entitled: [the phonological phenomena in Ayyat El Ihkam, an action research] aims at a knowledging the level of its correspondence to these phenomena.

At the beginning of the research, the researcher dealt with semantic and procedural meaning related to the "Ayyat".

After that, phonetic sounds (prosodies) as intonation, incorporation, intervals, it articulation and meaning was dealt with as will. Then, theoretically, he dealt with the previous aspects before applying all the phenomena of those "Ayyat".

On the light of treatment, the researcher concluded that "Ayyat El-Ihkam" is rich in those phenomena and its inclusion of musical and phonological rhythm as intonation, incorporation, intervals, elongation and facilitating El-hamza.

In addition to that, the "Ayyat" which included threat and punishment have a rhyme fits them as morphemes have certain qualities such as stress, plosive, voiced and voiceless, but Ayyat which excluded threat and punishment have a morphemes, so a rhyme also fits them.

It's also noticed that there was no contradiction between the sound of the letter (phonemes) and there is a suitability between the internal articulation in the same word and a suitability in this articulation and the purpose of the "Ayyat". The repetition in them was for the purpose of emphasis and importance.

Finally, the researcher proposes more studies and researcher to be conducted in this field (the phonetic phenomena) in "Ayyat" of the Holy Koran to reveal its secrets.

الأحكام :

الأحكام بفتح الهمزة جمع حكم ، والإحكام بالكسر هو الإحراز ، وقال ابن سيده : الحكم : القضاء ، وجمعه أحكام ، وقد حكم عليه بالأمر ويحكم حكما حكومة ، وقال الأزهري : الحكم هو القضاء بالعدل . وفي قوله تعالى : (كِتَابٌ أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ) هود/١ أي : أحكمت بالأمر والنهي والحلال والحرام ، ثم فصلت بالوعد والوعيد . (ابن منظور ، ١٩٩٥ : حكم) ، (الأزهري ، ١٩٦٤ : حكم)، (الرازي ، ١٩٨٦ : حكم ، ٤٤١) ، وأحكمت آياته ، أي أُحكمت من الخلل . (الطبري ، ١٩٨٦ : ١٨٠) ، وقالوا إنها الأوامر والنواهي. (أبو السعود ، ج٢: ٨) ، وسمي الحاكم حاكما لأنه يمنع الظالم من الظلم ، وحكمة اللجام ؛ هي

التي تمنع الفرس من الاضطراب. (ابن فارس ، ١٩٨٥ : ٩٤) ، (ابن دريد ، ١٩٩١ : ١٤٧) .

أنواع آيات الأحكام :

يُجمع العلماء على أن آيات الأحكام في القرآن الكريم خمسمائة آية ، منها الأحكام المصرح بها ، ومنها الأحكام المستنبطة من القصص والأمثال . (الزركشي ، ج٢ : ١٢) ويكثر الآي المصرح به في سورة البقرة والنساء والمائدة والأنعام والنور . وأمّا المستنبطة : فهي كما في قوله تعالى : (وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا) الأحقاف /١٥ ، مع قوله تعالى : (وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ) لقمان/١٤، حيث استنبط علي وابن عباس رضي الله عنهما ؛ أن أقل الحمل ستة أشهر . (الزركشي ، ...: ٥ ، ٦) .

الاستدلال على آيات الأحكام :

يستدل على آيات الأحكام بالصيغة مثل قوله سبحانه: (أُحِلَّ اللَّهُ لَكُمْ) المائدة / ٨٧ وقوله : (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ) المائدة / ٣ ، وقوله : (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ) البقرة / ١٨٣ ، وكل فعل عظمه الشرع أو مدحه أو مدح فعله أو أقسم به فهو دليل على مشروعيته المشتركة بين الوجوب والندب ، وكل فعل طلب الشارع تركه أو ذمه أو ذم فعله أو وصفه بسوء أو كراهة ، فهو دليل على المنع من الفعل، ودلالته على التحريم أظهر من دلالته على مجرد الكراهة . وتستفاد الإباحة من لفظ الإحلال ، ونفي الجناح والحرج والإثم والمؤاخذة وأمثالها (السيوطي ، ... : ١٠٣٨) ، كقوله تعالى : (فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ) البقرة/١٥٨ ، (لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ) النور /٦١ (فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ) البقرة /٢٠٣ (يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ) البقرة/٢٢٥ ، فآيات الأحكام ترجع إلى مفهوم واحد ، وهو الآيات التي بموجبها تمنع أو تسمح للإنسان القيام بأعمال تغضبه أو ترضيه سبحانه ، وه ما آيات التحريم ، كقوله : (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ

مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ) الأعراف/٣٣ ، فمن خلال الآيتين نلاحظ أن مفهوم الحلال أو الحرام جاء من اللفظ الصريح في كلمتي (أحل) و (حرَّم) .

الأصوات اللغوية :

اجتهد علماء اللغة العرب في البحث في الدرس الصوتي ، وكان أساسا في دراسة اللغة ، ومن أقرب الجوانب إلى المنهج العلمي ؛ لأنه في الأصل مبني على القراءات القرآنية ، والصوت ظاهرة طبيعية تدرك أثرها قبل أن تدرك كنهها. (الجاحظ ، ١٩٦٨: ٥٨) وقد قدم أبو الأسود الدؤلي عملاً رائعا عن طريق قراءة القرآن عندما قام بضبط القرآن بالنقط من خلال ملاحظة حركة الشفتين بقوله لكتابه : إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه إلى أعلاه ، وإن ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف ، وإن كسرت فاجعل النقطة من تحت الحرف (الراجحي ، ١٩٧٤ : ١٣٠) .

وتمتاز اللغة العربية في مجموع أصوات حروفها بسعة مدرجها الصوتي ، سعة تقابل أصوات الطبيعة في تنوعها وسعتها ، وتمتاز من جهة أخرى توزعها في هذا المدرج توزعا عادلا يؤدي إلى التوازن والانسجام بين الأصوات ، أضف إلى هذا أن العرب يراعون اجتماع الحروف في الكلمة الواحدة وتوزعها وترتيبها ؛ فيها حدوث الانسجام الصوتي والتآلف الموسيقي . وقد انتبه إلى ذلك السلف من علماء اللغة ، واستخرجوا بعض هذه القواعد الصوتية التي راعاها العرب في تأليف الألفاظ من الحروف ، وذلك كتجنبهم جمع الزاي مع الظاء والسين والضاد والذال ؛ والجيم مع القاف والظاء والطاء والغين والصاد . (ابن فارس ، ١٩٦٧ : ٨٢) .

المخارج الصوتية :

يحدث الصوت باندفاع الهواء من الرئتين ومروره بالقصبة الهوائية ، فيحرك الحبال الصوتية ، فتهتز محدثة استمرارا وارتفاعا ، ثم يمر الهواء بتجويف الحلق ثم بتجويف الفم ، وقد يمر بالخياشيم أوْ لا يمر ، وإذا مر

الهواء في هذه الأقسام ، فإما أن يترك له مجال المرور دون أن يعترضه شيء، وإما أن يسد الطريق أمامه بأحد الحواجز كاللهاة واللسان والشفتين بأوضاع كثيرة تحدث أصواتا مختلفة متنوعة . والموضع الذي يكون فيه انحباس الهواء وحجزه عن المرور كليا أو جزئيا بأحد الحواجز الموجودة في الحلق أو الفم كاللهاة أو الشفتين هو مخرج الصوت . (عمر ، ١٩٨٢ : ٩٢) ، (مبارك ، ١٩٧٥ : ٤٦)، والمخارج الصوتية هي :

مخرج الجوف : وهو المكان الذي يندفع منه هواء الزفير الخارج من الرئتين ، وينتج منه حروف المد والحركات (ا ، و ، ى ، الفتحة ، الضمة ، الكسرة) .

مخرج الحلق : ويتكون من أقصى الحلق ؛ ويخرج منه صوت الهاء وصوت الهمزة ، ووسط الحلق ؛ ويخرج منه صوت الحاء وصوت العين ، وأدنى الحلق ؛ ويخرج منه صوت الغين وصوت الخاء .

مخرج اللسان : ويتكون من الأقسام التالية :

مخرج أقصى اللسان : ويخرج منه صوت القاف وصوت الكاف .

مخرج من وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى ؛ ويخرج منه أصوات (ج ، ش ، ي) .(سيبويه ، ...:٤٣٥)

مخرج من بين حافة اللسان وما يليه من أضراس ؛ ويصدر عن هذا المخرج صوت الضاد، ويصفه سيبويه بأنه احتكاكي مفخم مع استطالة مخرجه.(بشر،١٩٨٦ : ١٠٠) .

مخرج من حافة اللسان : ويخرج منه صوت اللام ، وسماه العلماء المنحرف . مخرج من طرف اللسان بينه وبين ما فوق الثنايا : ومنه يخرج صوت الذال ، ويشترك معه الظاء والثاء . (سيبويه ، ... : ٤٣٣) .

مخرج من طرف اللسان : وهو مخرج النون ، وإذا أدخل في ظهر اللسان قليلا لانحرافه قليلا إلى الأمام ينتج منه حرف الراء ، وهو صوت مكرر . (سيبويه ، ... : ٤٣٣) .

مخرج مما بين طرف اللسان وأصول الثنايا : ومنه يخرج صوت التاء وصوت الطاء وصوت الدال .

مخرج ما بين طرف اللسان وفوق الثنايا : ومنه يخرج صوت السين والزاي والصاد .

مخرج من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا :

ويصدر منه صوت الفاء .

مخرج من بين الشفتين :

ويصدر من هذا المخرج صوت الباء .

مخرج الخيشوم :

ويخرج منه صوت الميم .

صفات الأصوات :

وضع القدماء صفات للأصوات ومنهم الخليل بن أحمد ، وتبعه سيبويه ؛ حيث صنف الأصوات حسب الشدة والرخاوة أو حسب المخرج والصفات هي :

المجهورة : وهو حرف أشبع الاعتماد في موضعه ، ومنع أن يجري معه النفس حتى ينقضي الاعتماد ويجري الصوت ، ويهتز معه الوتران الصوتيان وتسمى عند علماء الغرب المغلقة . والأصوات المجهورة هي : (ب، ج ، د ، ذ ، ر ، ز ، ض ، ظ ، ع ، ل ، م ، ن ، و ، ي) ، وأضاف سيبويه صوت الطاء وجعله من الأصوات المجهورة. (سيبويه ،...: ٤٣٣) ، (الباقلاني...: ٦٨). (مبارك ، ١٩٨١ :٥٠)

المهموسة : وهو الحرف الذي يجري معه النفس ولا يتحرك معه الوتران الصوتيان ، وكونها تعتمد على المخرج اعتمادا ضعيفا ، سميت بالأصوات المنفتحة أو المستمرة . والحروف التي لا تعتمد على المخرج اعتمادا تاما هي : (ح ، ث ، هـ ، ش ، خ ، ص ، ف ، س ، ك ، ت) . (مبارك ، ١٩٨١ : ٥٠) .

الأصوات الشديدة : وهي التي يمتنع معها مرور الصوت وتمده ، وهي : (ا ، ج ، د ، ت ، ط ، ب ، ق ، ك) . (بشر ، ١٩٨٦ : ١١٣) ، (مبارك ١٩٨١: ٥١) .

الأصوات الرخوة : وهي الأصوات التي يجري فيها الصوت ، ويمكن أن نمده معها ، وهي : (ث ، ح ، خ ، ذ ، ز ، س ، ش ، ص ، ض ، ظ ، غ ، ف ، ه) . وصوت الضاد عند المحدثين شديد انفجاري ، وعند القدماء من الأصوات الرخوة . (بشر ، ١٩٨٦ : ١١٣) ، (مبارك ١٩٨١ : ٥١)

الأصوات المتوسطة : وهي في رأي العلماء العربية القدماء بين الشديدة والرخوة وحروفها : (ل ، م ، ي ، ر ، و ، ع ، ن ، ا) . وسماها المحدثون بالأصوات المائعة . (أنيس ، ١٩٨٠ : ٢٥) .

وهناك صفات ثانوية للأصوات ، من مثل الصفة الشفوية وهي التي تكتسب عندما يجاور حرف غير شفوي حرفا شفويا مثل الكاف المجاورة للواو في كلمة (أكوام) . (الحمداني ، ... : ٨٥) ، أو صفة التفخيم إذا جاور صوتا مفخما . ومن الصفات الثانوية أيضا صفات ؛ الإطباق ، الانفتاح ، والذلاقة والصمت والمد واللين والقلقلة والتكرار . ي إما آيات التحليل كقوله : (أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ) البقرة /١٨٧ .

الظواهر الصوتية :

تميزت اللغة العربية أنها ذات أوزان ونغمات ، هي السبب فيما للغة العربية من خاصية موسيقية في كلامها ولو أننا حاولنا نقل أي كلام عربي إلى

رموز موسيقية لكان ذلك ، وقد بلغت هذه الميزة الموسيقية ذروتها في التركيب القرآني الرائع ، حيث تتناسق المعاني والنغمات والفكرة والجرس أحسن تناسق وبخاصة في مواقف الإنذار والتهديد . (زرزور ، ١٩٨٤ : ٤٤٩) ، فهذه الناحية الموسيقية في الآيات ، تجدد النشاط عند السامع ، وتساعد على ترجيع الصوت وتهادي النفس فيه . (الدراز ، ١٩٨٨ : ١٠٣) . ويرجع الانسجام والتناسق بين الحروف في الكلمة القرآنية إلى مخارجها وصفاتها وحركاتها المتنوعة ومن مجموع هذه العلاقات الصوتية ، تتكون النغمة الموسيقية للكلمة أو الإيقاع الموسيقي لها وقال في ذلك الرافعي : " إنما تنزل منزلة النبرات الموسيقية المرسلة في جملتها ، كيف اتفقت ، فلا بدلها مع ذلك من نوع من التركيب ، ووجهة من التأليف حتى يمازج بعضها بعضا ، ويتألف منها شيء مع شيء ، فتتداخل خواصها ، وتجتمع صفاتها ويكون منها اللحن الموسيقي . (الرافعي . ١٩٧٣ : ٢١٥) .

ومن الظواهر الصوتية التي لها تأثير موسيقي في آيات الأحكام :

المد : وهو أغنى الظواهر بالموسيقى ؛ لأنه امتداد اللفظ بالصوت لعلة في الصيغة . والمعني بالمد هو زيادة المد في حروف المد ، وهذه الزيادة المذكورة هي المهمة في قيمة العبارة القرآنية موسيقيًا . ويكون المد في حروف المد واللين (أ ، و ، ى) ، قبل كل منها حركة من جنسه ، وفي حرفي اللين الواو والياء الساكنتين قبلهما فتحة ، وعلة المد إنما هي لملاصقة تلك الحروف الخمسة لهمزة أو ساكن مشدد نحو ؛ شاء ، ماء ، شيء ، ينوء ، صاخّة ، الضالين ، لأن هذه الحروف خفيفة والهمزة والسكن بنوعيه أصوات قوية شديدة، فالمد يظهر تلك الحروف أمام هذه ويقويها ، ويمنح اللفظ القرآني أبرز خصائصه الموسيقية ، ودرجات من التنويع والوحدات الزمنية في مسموع صوته . وإشباع صوت المد واللين بعده همزة في أول كلمة أخرى ، علتها ملاصقة صوت الهمزة لصوت المد واللين ، بالرغم من انفصال الصوتين

واحتمال الوقف فلم يلتفت إلى ذلك ولم يؤخذ به . وأمثلة المد في القرآن الكريم كثيرة منها :

يقول سبحانه وتعالى : (هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ) النساء : ١٠٩

، (فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ) البقرة : ٢٨٢

، (وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا) البقرة : ٢٨٢

، (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً) النور : ٤

، (وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) البقرة : ٢٧٦

فالكلمات التي وردت في الآيات الكريمة (هؤلاء ، شهداء ، أولئك) ، يسبق الهمزة فيها حرف مد ، أي لاصقته ، فيظهر المد فيها عند التلاوة .

الفواصل : تعد فواصل القرآن وكأنها جمل موسيقية تزيد القرآن حسنا ،ومادة الصوت فيها ، هي مظهر الانفعال النفسي ، وهذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنويع الصوت ، بما يخرجه فيه مدا أو غنة أو لينا أو شدة ، وبما يهيئ له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما في النفس من أصولها، ثم هو يجعل الصوت إلى الإيجاز والاجتماع أو الإطناب والبسط ، بمقدار ما يكسبه من الحدوة والارتفاع والاهتزاز وبُعد المدى ، ونحوها مما هو بلاغة الصوت في لغة الموسيقى . فهي أبلغ ما تبلغه اللغات في هز الشعور واستثارته من أعماق النفس ، وهنا يؤول الأثر الوارد أن في الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا ، وما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن إلا صور تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى ، وتراها أكثر ما

تنتهي بالنون والميم وقبلهما حرف مد ، وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها ، أو بالمد وهو كذلك طبيعي في القرآن . (الرافعي ، ١٩٧٣ : ٢١٥) .

التنغيم :

يقصد بالتنغيم مدى الارتفاع والانخفاض في درجة الصوت أو النغمة في أثناء نطق الجملة ، ويغير التنغيم في معنى الجملة ؛ فنقول : أنت ذاهب إلى المكتبة . يكون الفرق بين الجملة الخبرية وبين الجملة الاستفهامية ، فقط من خلال التنغيم ، وقد نستعمل تنغيما آخر ليدل على استغرابنا من ذهابك إلى المكتبة دون سواها من الأماكن (الحمداني،...: ١٠٦)

ومثله عند قولنا ، ما أحسن زيد ؛ فقد يكون التنغيم معبرا عن استفهام أو تعجب أو خبر (ابن هشام ، ١٩٧٩ : ٣٩٢) . ومثل ذلك ترحيب شخص بآخر يفصح عنه التنغيم ، هل هو ترحيب حقيقي أو هو ترحيب على سبيل الاستهزاء .

وظاهرة التنغيم في القرآن الكريم موجودة لكنها في آيات الأحكام تكاد تكون قليلة أو نادرة .

يقول سبحانه وتعالى : (إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) المائدة/٩١

في الآية الكريمة يكشف التنغيم عن خروج الاستفهام عن معناه الحقيقي إلى المعنى البلاغي الذي يفيد الأمر ، أي انتهوا .

وكذلك في قوله تعالى : (وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ) البقرة/٢٢٨ .

الجملة خبرية ، والتنغيم يبين أمر المطلقات التربص والانتظار .

التوزيع الصوتي في الآيات :

بلغت هذه الظاهرة في العربية من الظهور والوضوح ما يجعلها مزية من مزاياها وخصيصة من خصائصها ، وقد التفت الأوائل إلى ذلك مثل ابن جني ، الذي ذكر الفرق بين " القد " و "القط " وكيف أن الدال طويل الجرس عند انقطاعها، حيث وُضع لقطع الشيء طولا، والطاء التي جرسها أقل طولا من الدال، وضع لقطع الشيء عرضا (ابن جني، ... :٦٥) ، (الراجحي ، ١٩٧١ : ٩٨) . فهذه السمة من السمات المهمة في اللغة العربية ، حيث أعطت العربي القدرة على الحكم على النصوص بأن هذا الكلام وقعه حسن ، وذاك الكلام وقعه منفر لنبوّ جرسه (أنيس ، ١٩٨٠ : ١٩٥) .

ويروى أن الوليد بن المغيرة تذوق روعة جرس القرآن وإيقاعه في سورة السجدة عندما تلاها عليه صلى الله عليه وسلم قال : إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وأن أسفله لمغدق وأن أعلاه لمثمر ، وما يقول هذا بشر (الجرجاني، ... : ٣٥٨) ، (الزبيدي ...: ١٣٦) . فعند موضع الشدة والعذاب كما في قوله تعالى : (وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) المائدة/٥ ؛ فكلمة (حبط) ، وكلمة (خسر) بما فيهما من رخاوة الحروف (ح ، خ ، س) وشدة (ب ، ط) ، وذلاقة (ر) ، تدل على الشدة في كلمة (حبط) ، والنزول من الشدة إلى الرخاوة والذلاقة ، لأنهما خفيفان على اللسان يتناسبان مع النتيجة الواضحة ، وهي الخسران المستوحى من انتهاء الشدة عند السكون الملحوظ في نهاية الآية (الخاسرين) .

وفي قوله سبحانه أيضاً : (الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ) البقرة /٢٧٥ .

في لفظ (التخبط) نلاحظ الثقل والاضطراب الذي يوحي إلى اضطراب آكل الربا النفسي ، وهذا يلائم حروف مادة الكلمة (خ ، ب ، ط) ، الخاء حرف رخو ، والباء والطاء حرفان شديدان ، فكل هذا يتناسب مع الشدة التي يحتاجها آكل الربا. وفي كلمة (المسّ) ، الميم حرف ذلق خفيف على اللسان ، والسين من الحروف الرخوة ؛ فانحدار من الشدة إلى الرخاوة يشبه آكل الربا الذي يظهر كأنه قد أُصيب بصعقة شيطان ؛ يبدو في النهاية مترنحًا مرتخيًا مضطربًا خائر القوى .

وكذلك في قوله تعالى : (الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا) النساء /١٠ .

كلمة (بطن) ، الباء والطاء حرفان شديدان ، والنون حرف متوسط خفيف، وجاءت بعدها الكلمات (نارا) ، (سيصلون) ، (سعيرا) ، فجميعها تنم عن الشدة ، وألفاظ الآية ودلالاتها وجرس حروفها ، وإيقاعات عباراتها تتلاءم مع الموقف الذي يقتضي الشدة والعذاب ، وكأن قارئها أو سامعها يلحظ التهديد والإنذار وبخاصة عند الوقوف على الكلمات (ظلما) ، (نارا) ، (سعيرا) ؛ فالصورة تبنى من صوت حروف الشدة وجرس الكلمات للدلالة على تلك الصورة المرعبة بهيئتها وصوتها الذي يولد إيقاعا موسيقيا شديدا ، يتناسق مع شدة العذاب .

ووصف ابن مسعود رضي الله عنه الحواميم (١) في القرآن فقال : إذا وقعتُ في آل حم وقعتُ في روضات دمثات أتأنق فيهن ، ولاشك أن ابن مسعود لم يذهب في وصف هذه الصور إلى مجرد الملحظ الصوتي الموسيقي من الفواصل وأوزان الكلمات فحسب ، بل ذهب إلى أعمق من ذلك وأدق ، إلى ائتلاف أواخر الألفاظ وتناغمها بحيث تتصل اللفظة باللفظة ، من غير نبوٍّ ولا

شرود ، يحس معها القارئ بانسيابية موسيقية تجعله يتريث في تلاوته كأنما هو يمشي وسط حدائق جميلة ساحرة (الزبيدي ...: ١٣٧)[1] .

نرى في ألفاظ القرآن الكريم الحركات الصرفية واللغوية تجري في الوضع والترتيب مجرى الحروف أنفسها في ما هي له من أمر الفصاحة ، فيهيئ بعضها لبعض ، ويساند بعضها بعضا ، مؤتلفة مع أصوات الحروف وإن كانت ثقيلة ، فإذا استعملت في القرآن كان لها شأن عجيب ، ورأينا أصوات الأحرف والحركات التي قبلها قد امتهدت لها طريقا ، فكانت أعذب شيء وأرقه ، وجاءت متمكنة في موضعها ، وكانت لهذا الموضع أولى الحركات بالخفة والروعة . (الرافعي ، ١٩٧٣ : ٢٢٧) .

قال تعالى : (الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ) البقرة/١٩٧ .

هذه الآية الكريمة المكونة من اثنتي عشرة كلمة ، تتضمن ثلاث كلمات من لفظ واحد هي (الحج) ، فتكرار هذه الكلمة في آية قصيرة ، يدل على أهميتها ، إذ ينبغي لقارئها أن يدرك هذه الأهمية والقيمة للكلمة ، كيف لا وهي من أركان الإسلام ومن الفروض التي فرضها الله سبحانه وتعالى . وتكرار حرف (لا) في الآية أيضا يدل على أهمية ترك الرفث والفسق والجدال في وقت العبادة. وكلمة الـ (رفث) بحروفها الثلاثة ، نجدها متسقة سهلة على اللسان على الرغم من عدم شيوع استعمالها ، فساندت حروفها الرخوة (ث ، ف) ، والحرف المتوسط (ر) بعضها بعضا ، وهيأ لها حرف (لا) تآلفها مع سابقتها ولاحقتها ، فهذا جميعه أعطى للآية جرسا موسيقيا ، يجعل السامع ينتبه للمطلوب في الآية وبخاصة عندما نرى الآية كأنها ميزان لسانه كلمة (الحج) جاء في وسطها ،

---

[1] الحواميم وهي السور التي تبدأ بقوله سبحانه وتعالى (حم) ، وهي : غافر ، فصلت ، الشورى ، الزخرف ، الدخان ، الجاثية والأحقاف .

وجاء في طرفيه كلمة (الحج) في أولها وفي آخرها ، فكأنما جاءت الآية كاملة متكاملة ومترابطة بعضها مع بعض تركيبا موسيقيا هادفا .

وقال تعالى : (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا) النساء/٣٤ ، فهذه الآية مع طولها لم نجد فيها تنافرا في الحروف :

فيها صوت الزاي في كلمة (نشوزهن) تجنبته العرب مع الظاء والسين والضاد والدال وتجنبته الآية .وصوت الجيم في (الرجال ، اهجروهن ، المضاجع) تجنبت الآية اجتماعه مع القاف والطاء والظاء والغين والصاد كما تجنبته العرب . والحاء في (الصالحات ، حافظات ، حفظ) مما تجنبته الآية أن يجتمع مع الهاء . وتجنبت العرب أن يأتي صوت الهاء قبل صوت العين كما جاء في الآية (بعضهم ، فعظوهن) ، وتجنبت العرب أيضا جعل حرف النون قبل الراء كما في (اضربوهن) الواردة في الآية .وإن جمع بين اثنين منها يُقدّم الأقوى على الأضعف ، نحو : أهل ، أحد ، أخ وعهد ، وكذلك متى تقارب الحرفان لم يجمع بينهما إلا بتقديم الأقوى منهما . (المبارك ، ١٩٧٥ : ٢٥١) .

ومما جاء منه في آيات الأحكام في القرآن الكريم :

قوله سبحانه وتعالى : (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) المائدة/٣٨ ، ففي الآية الكريمة نلاحظ ائتلاف الحروف مع بعضها ، وتجنبت العرب كما تجنبت الآية اجتماع الحروف المتنافرة في الألفاظ : (السارق ، السارقة ، فاقطعوا ، جزاء ، كسبا ، نكالا) ، وذلك لنفور الحس عنه ، والمشقة على النفس لتكلفه .

ويتقدم الحرف القوي على الحرف الضعيف في كلمة واحدة كما في الآيات التالية :

يقول تعالى : (مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ) الحشر/٧

- (وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ) المائدة/٦
- (كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ) البقرة/١٨٠
- (وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ) النساء/١٢
- (وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ) النساء/٢٣
- (وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا) الإسراء/٣٤
- (وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا) الأنعام/١٥٢

فالكلمات الواردة في الآيات السابقة : (أهل ، أحد ، أخ ، أخت ، العهد) ، هذه جميعها تقدم فيها الحرف القوي على الحرف الضعيف ؛ الهمزة أقوى من الهاء وأقوى من الحاء ، وأقوى من الخاء ، والعين أقوى من الهاء .

التناسب الصوتي في الكلمات :

يقول سبحانه وتعالى في آية من آيات الأحكام : (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(٢٣٤)وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ(٢٣٥)لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ) البقرة /٢٣٤-٢٣٦.

من خلال هذه الآية الكريمة نلاحظ الإيقاع الموسيقي الذي يلائم الجملة الموسيقية في الطول ، متحدا تبعا لتوحد الأسلوب الموسيقي ، مسترسل الروي كجو الحديث الذي يشبه التسلسل القصصي ، فعند قراءة النص تشعر وكأنك تقرأ قصة واضحة الهدف تحمل الوصايا للنفس البشرية ؛ فيها الممنوع وفيها المسموح ، وذلك ممثلا في قوله (فلا جناح) التي تكررت في السياق ثلاث مرات ، وقوله في الممنوع (ولا تواعدوهن) ، وقوله (ولا تعزموا) ، وقوله (فاحذروه) ، إضافة إلى أفعال الأمر والطلب في قوله : (يتربصن) ، (اعلموا) ، (متعوهن) ، (فإذا ... فلا) ، فهذه تؤكد أن الألفاظ ، جاءت لتؤدي معنى السياق، وتؤدي تناسبا في الإيقاع ، دون أن يطغى هذا على ذاك ، أو يخضع النظم للضرورات . وإذا أمعنا النظر إلى السياق مرة أخرى ، نجد المقطع (هنّ) الذي تكرر سبع مرات ، والنون التي تكررت ثلاث عشر مرة ، يزيد من جمال الإيقاع الموسيقي في اللفظة الواحدة ، لتؤول إلى تركيب ، ثم إلى جمال الإيقاع في النص . وهكذا تتبدى تلك الموسيقى الداخلية في بناء التعبير القرآني ، موزونة بميزان شديد الحساسية تمليه أخف الحركات والاهتزازات ، ليس هذا فقط ، بل نجد في توالي النونات المشددة في النص لها إيقاع التشديد على النفس البشرية بأهمية هذه الكلمات ، وأهمية المناسبة ، فضلا عن أهمية النساء والأخطار التي قد تنجم عن التهاون بأمورهن ؛ كحالة الخطبة والزواج والطلاق والوفاة .

وفي الآية الكريمة : (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) المائدة /٣٨ ، نلاحظ الألفاظ (السارق) و (السارقة) و (كسبا) ، بما فيها من حروف مهموسة ؛ السين والكاف ، مع حرف المد ؛ الألف ، تتلاءم مع فعل السرقة الذي يحتاج إلى خفيّة وتسلل وانسياب ، وقوله (فاقطعوا) المشتملة على القاف والطاء ، وهي من الحروف الشديدة ، التي تلائم العقاب الذي يترتب على فعل السرقة . ليس هذا فقط ، بل نجد الحركة عند الانتقال من مقطع إلى مقطع ، ففي قوله (والسارق والسارقة) ينتظر السامع قليلا، ويدور في ذهنه أشياء كثيرة ، ثم بعدها يرى ما بهما ؟ فيكتشف في

المتماثلين يحتاجان إلى مجهود عضلي للنطق بهما في كلمة واحدة ، وتيسير هذا المجهود العضلي يقلب أحد الصوتين إلى تلك الأصوات التي لا تلزم مجهودا عضليا كأصوات اللين وأشباهها . (الصابوني ، ...: ١٣٥) ، ومن الشواهد القرآنية في آيات الأحكام على المخالفة :

يقول سبحانه وتعالى : (وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ) البقرة /٢٨٢

ويقول كذلك : (وَأُمْلِي لَهُمْ) الأعراف /١٨٣

، (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا) الحج /٤٨

، (فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) الفرقان /٥

نلاحظ في الآيات المثلين في (يملل) وهو الأصل ، وعندما يستثقل لفظ المثلين ، يخالفون فيقولون (يملي) ، فقلبت اللام إلى حرف اللين لخفته ، ولم يكن هذا القلب واجبا ، وإنما غُيِّر استحسانا ، فساغ ذلك ولم يكن موجبا لتغيير كل ما اجتمعت فيه أمثال .

الإدغام :

ويتبع الإدغام قوانين السهولة والتيسير ، وهو اللفظ بحرفين حرفا كالثاني مشدَّدا ، ويترتب الإدغام على تجاور صوتين متجانسين أو متقاربين ، وأن يفنى أحدهما في الآخر واسمه عند علماء الأصوات المحدثين ؛ المماثلة الكلية ، ومن الإدغام ؛ الإدغام الناقص ، وفيه لا يتم فناء أحد الصوتين بل يترك الصوت بعد فنائه أثرا يشعر به ، وهذا لا يكون إلا حين تلتقي النون المشكلة بالسكون ، بالياء أو الواو مثل ، (مِنْ وال) أو (مَنْ يقول) .

يقول سبحانه وتعالى : (وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا) الأنعام /١٤٦

تم الجهر أولا بالتاء فصارت ذالا ؛ لأن الصوت الثاني (الظاء) صوت مجهور ، ثم سمح للهواء معها بالمرور فصارت رخوة ، ثم انتقل مخرجها إلى الأصوات المسماة باللثوية ، وبهذا صارت ذالا في قوله (حملت ظهورها) ، ولا فرق بين الذال والظاء ، إلا في أن الصوت الثاني من أصوات الإطباق ، والناحية الصوتية هنا تبرر هذا الإدغام . (الجزري ، ج٢ : ٥) .

ويقول سبحانه : (أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ) النساء/٩٠

تم الإدغام بأن سمح للهواء بالمرور مع التاء ، فأصبحت رخوة ، وبهذا أشبهت كل المشابهة السين في الرخاوة والهمس ، ولا فرق بين السين والصاد إلا في أن الثانية مطابقة ، عندها يتم الإدغام بين التاء والصاد .

وفي قوله تعالى : (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً) النور /٤

تم الإدغام هنا في : (أربعة شهداء) ، بين التاء وبين الشين ، حيث يتم إسقاط صوت اللين (ت) الموجودة في (أربعة) وتلفظ هاء ويكون ذلك عند النطق بها وهي مشكلة بالسكون تاء .

ويقول أيضا : (الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ) الأعراف/١٩ ، انتقل مخرج الثاء إلى وسط الحنك ، فتشابهت الشين في الهمس والرخاوة وبذلك تم الإدغام .

تخفيف الهمزة :

الهمزة أثقل الحروف نطقا وأبعدها مخرجا ، تنوع العرب في تخفيفها بأنواع التخفيف وقريش وأهل الحجاز أكثرهم للهمز تخفيفا ، ولذلك كثر ما يرد تخفيفه من طرقهم ، كابن كثير ونافع وأبي عمرو ، وجعل ابن جني تخفيف الهمز من نوع تقريب الصوت إلى الصوت . (الحموز ، ١٩٨٦ : ١٨١، ١٨٢) .

وتخفيف الهمزة أنواع من مثل : (السيوطي ، ١٩٨٧ : ٣٠٨) .

نقل الحركة : وهو نقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها ، فيسقط ، ومن أمثلته :

قوله تعالى : (فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ) البقرة /١٧٣

الأصل تسكين النون في (فمنْ) ، وعند نقل حركة الهمزة من أجل التخفيف إلى النون الساكنة أصبحت (فمنِ) .

وقوله أيضا : (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) المؤمنون/١ ، تم نقل حركة الهمزة إلى الدال الساكنة ، وقرأ بها نافع : (قدَ أفلح المؤمنون) بفتح الدال . (الأصبهاني : ١٤٢) .

ومنه قوله تعالى : (فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ) البقرة /٢٠٣ ، تُقرأ (فَلَثْمَ) .

الإبدال : ويعني إبدال الهمزة الساكنة حرف مد من جنس حركة ما قبلها ، فتبدل ألفا بعد فتح ، وتبدل الهمزة الساكنة بعد متحركة متصلة مدة تجانس والمتحركة ياء إن كسرت أو تلته ولم تضم أو كانت لاما مطلقا وواوا في غير ذلك نحو (أؤم) . (السيوطي ، ج٢ : ٢٢٠) ، أي تبديل الساكنة بعد همزة متحركة متصلة مدة تجانس الحركة فتبدل ألفا في آدم ، وياء في إيمان وواوا في أؤمن ويؤمنون كما في قوله تعالى :

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) المؤمنون / ١ قُرئ (مومنون) من غير همز .

، (وَأْمُرْ أَهْلَكَ) طه /١٣٢ ، تُقرأ (وامر أهلك) ، بإبدال الهمزة ألفا بعد فتح.

ومن إبدال الهمزة واوا بعد ضم في قوله تعالى : (لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ) البقرة /٢٢٦ ، تقرأ (يولون) من غير همز بسبب إبدالها إلى الواو من جنس حركة ما قبلها .